

من أحوال العصاة

الحمد لله الذي أذل بالموت رقاب الجبارية ، وأنهى بالموت آمال القياصرة فنقلهم الموت من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهد إلى ظلمة اللحوود ، ومن ملاعبة الجوادى والنساء والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التنعم في ألوان الطعام والشراب إلى التمرغ في ألوان الوحل والتراب.

أحمدك يا رب واستعينك واستهديك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما اثنيت على نفسك جل ثناؤك وعظم جاهك ، ولا إله غيرك أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ينادي يوم القيمة بعد فناء خلقه ، ويقول : أنا الملك ، لمن الملك اليوم ، ثم يجib على ذاته سبحانه وتعالى : لله الواحد القهار سبحانه سبحانه ، ذو العزة والجلال ، سبحانه ذي الملك والملائكة ، سبحانه الذي لا يموت ، سبحانه من كتب الفناء على الخلاائق ولا يموت.

وأشهد أن نبينا وحبينا محمدا نبيه ورسوله وصفيه من خلقه وخليله ، أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة فكشف الله به الغمة ، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، وعاش طوال أيامه وليلاته يمشي على شوك الأسماك ويخطو على جمر الكيد والعنات يلتمس الطريق لهداية الضاللين وإرشاد الحائرات حتى علم الجاهل وقوم المعوج وأمن الخائف وطمأن القلق ونشر أضواء الحق والخير والتوحيد والإيمان كما تنشر الشمس أضواءها في سائر الأكون.

اللهم صلّى وسلم ورزق وبارك عليه ، رفع الله له ذكره وشرح الله له صدره ، ووضع الله عنه وزره ، وزakah ربه على جميع الخلق ومع ذلك خاطبه {إِنَّكَ مَيْتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} الزمر : 30

اللهم صلّى وسلم ورزق وبارك عليه وعلى آله وصحبه وأحبائه واتباعه وعلى كل من اقتفي اثره واهتدى بهي واستن بسننه إلى يوم الدين

أنها رحلة الأمانى لحال العصاة والكافر الذين فضلوا دار الفناء على دار البقاء

كأنني به :

في النار يتقلب في صنوف العذاب، وقد اجتمع له من العذاب المعنوي والجسدي ما لا تطيقه الجبال، وبينما هو على تلك الأحوال إذ بذكرياته الأليمة تبعث بخاطره، إنها ذكريات رحلته منذ أن كان في الدنيا إلى أن صار في الحطمة، قد امتنع فيها صهوة الأمانى، لا يملك إلا أن يتمنى، ولكن بشس الأمانية تلك التي لا أمل في تحقيقها، فعندما يدرك ذلك يكتنفه الألم والحسنة.

كانت البداية هنا في الدنيا، عندما قضى حياته لعباً ولهواً، وغرته الحياة الدنيا، وغره بالله الغرور، لم يرج لله وقاراً، كان لفرض الله مضيناً، وعن سبيل مرضاته ناثياً، ولغ في ماء المنكرات المسموم، وكان حول الذنوب يحوم، غره طول الأمل، وطمع في مد الأجل، أعرض عن سبيل الصالحين، وخاض مع الخائضين، حتى أتاه اليقين.

أناه الموت حال غفلته وسهوه، فتذكر ماضيه الأسود، فكانت أول أمنياته عندما تذكر أن له ريا { ربَّ ارْجِعُونَ (٩٩) لَعَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ } المؤمنون: ٩٩-٠٠١، وبينما هو في أمنيته، إذا بالجواب يسقط عليه كالصاعقة : { كَلَّا إِنَّهَا كَلْمَةٌ هُوَ قَاتِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرَزَخٌ إِلَى يَوْمِ يَعْشُونَ } المؤمنون: ٠٠١، فيالها من حسرة وياله من ألم.

دخل حفرته الضيقة، والتي استقبلته بضمة قاسية اختلفت فيها أضلاعه، وهناك تعرض لفتنة الملوكين حيث سأله بمنظرهما المخيف المرعب عن ربه ودينه ونبيه، فقال: هاه هاه لا أدرى، قالها في ظل دهشتة وحيرته ؛ كيف أعجز عن إجابة تلك الأسئلة السهلة وأنا الذكي اللبق الفصيح ؟!

لم يدر المسكين بأن الأمر محض ثبيت من رب العالمين، جزاء لعباده الصالحين.

وظل في قبره يقاسي أهوال العذاب، فهذا ملك قائم على رأسه بحجر يشدح بها رأسه فإذا التأمت عاد من جديد!! وهذا آخر يقطع من جانب فمه الأيمن إلى قفاه بخطاف من حديد، ثم يضنه في أنفه فيقطع إلى قفاه، ثم في عينه اليمنى إلى قفاه، ثم يستدير إلى الشق الأيسر، فيفعل فيه مثل ذلك، فيعود إلى الأول وقد التأم، وهكذا حتى تقوم الساعة!!

وكان رفيقه في قبره رجل قبيح المنظر، منتن الريح، لما سأله صاحبنا عن هويته أجاب: أنا عملك الخبيث.

ولما فتحت له نافذة على دار الجحيم، ورأى ماله ومكانه فيها وما له من العذاب، تمنى أمنية أخرى تتم عن عظم قدر العذاب المنتظر في النار يوم القيمة، قال: رب لا تقوم الساعة، رب لا تقوم الساعة.

يا سبحان الله، إنه يعذب في البرزخ عذاباً أليماً، ومع ذلك يتمنى أن يظل في هذا العذاب لأنه قد تيقن أن عذاب الآخرة أشد وأخزى،

كما أخبر رينا تبارك وتعالى : { وَلَنْدِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } السجدة: ١٢،

فكان الأدنى هو عذاب القبر، والأكبر هو عذاب النار، ولكنها لم تكن سوى أمنية قد حيل بينه وبينها حيث { وَنَفَخَ فِي الصُّورِ فَصَبَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظَرُونَ } الزمر: ٨٦.

قامت القيمة وخرج من قبره كالجراد المنتشر، حافيًا عاريًا إلى أرض غير الأرض تحت سماء غير السماء، فوقف مع الخلائق لا يسمع لهم إلا همساً، فوقف يقاسي حر الشمس التي اقتربت من الرؤوس مقدار ميل، فسال عرقه حتى الجمء.

وهنا رأى أمراً عجيباً، قد أحضرت البهائم وتجلى فيها عدل الله تعالى؛ حيث أمرت الشاة الجماء من الشاة القراء التي نطحتها في الدنيا، ثم قيل لها كوني تراباً، فكانت تراباً، وهنا قال صاحبنا في نفسه : يا ولاه، لقد اقتضى الله لهذه البهائم التي لا تعقل بعضها من بعض، فماذا سيفعل الله بي ؟! أنا الذي ضربت هذا وشتمت هذا، وقدفت هذا، وأكلت مال هذا، ماذا سيفعل الله بي ؟!

فتکالب عليه أهل المظالم آخذين بتلابييه ينهالون عليه بسيل من الاتهامات : ضربتني،

ظمتني، شتمتني، أكلت مالي.....، لقد علم أن اليوم يوم القصاص ورد المظالم، لكنها على نسق مختلف، إنها الحسنات بالحسنات، فأعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فلما فنيت الحسنات قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، وهنا تذكر مصير الحيوانات بعد القصاص، فتمنى أمنيته العجيبة، تمنى أن يصير تراباً كما صارت البهائم حتى لا يعاين العذاب فتمنى: {يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا} النبأ: 04، ولكن هيئات هيئات.

لما حان وقت توزيع الكتب، رأى أحدهم قد أخذ كتابه بيمينه، فطار في أرض المحشر مسروراً فرحاً يقول: {هَافُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيَةً} (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مَلَاقِ حَسَابِيَةً (20) الحاقة ، فـأـيـقـنـ أـنـهـ فـيـ {عـيـشـةـ رـاضـيـةـ} (21) فـيـ جـنـةـ عـالـيـةـ (22) قـطـوـفـهـ دـانـيـةـ (23) الحاقة ، فـانتـظـرـ أـنـ يـأـتـيـهـ الـكـتـابـ يـأـخـذـهـ بـيـمـيـنـهـ،ـ إـلـاـ أـنـهـ رـأـيـ يـدـهـ الـيـسـرـىـ تـلـفـ وـرـاءـ ظـهـرـهـ رـغـمـاـ عـنـهـ،ـ ثـمـ أـتـاهـ الـكـتـابـ فـأـمـسـكـهـ بـيـسـرـاهـ فـعـلـمـ أـنـهـ الـهـلاـكـ،ـ

فـجـزـعـ وـصـاحـ بـأـمـنـيـتـهـ :ـ {يـاـ لـيـتـنـيـ لـمـ أـوـتـ كـتـابـيـةـ} (25) وـلـمـ أـدـرـ مـاـ حـسـابـيـةـ (26) يـاـ لـيـتـهـاـ كـانـتـ القـاضـيـةـ (27) الحـاقـةـ ،ـ وـلـكـنـهـ مـجـرـدـ أـمـنـيـهـ تـذـهـبـ كـلـمـاتـهـ أـدـرـاجـ الـرـياـحـ.

كان له طفل صغير، يحبه حباً كثيراً، وإذا مرض ولده سهر بجانبه، يبكي لمرضه، ويتنفس لو كان مكانه مريضاً وكان ولده في عافية، لم يكن ليتردد في أن يفديه بحياته إذا اقتضى الأمر، ولما قامت القيامة، وعاين الأهوال وأيقن العذاب، تمنى أمنية قاسية هائلة، تمنى أن يفتدي من عذاب جهنم بولده فلذة كبده، فذلك يوم : {إِيَوَدَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنِيهِ} المعراج: 11،

ألهذه الدرجة بلغت الأهوال والشدائد حتى يتمنى أن يدخل الجنة على أكتاف ولده ويطرح فلذة كبده في النار؟! لكنها أمنية مصيرها كسابقتها.

ودخل النار ودخلت معه أمانية، وصار يقاسي ألوان العذاب، يتجرع الزقوم، ويشرب ماء حميماً يقطع الأمعاء، يصب من فوق رأسه الحميماً، فصهر جلده وما في بطنه، عصارة أهل النار طعامه، وثياب النار لباسه، ألقى عليه الجوع والعطش، وما من طعام طيب يشع به جوعته أو شراب يروي به ظمأه.

وهنا تذكر أهل الجنة أصحاب النعيم وما هم فيه من رغد العيش، وكيف أنهم دخلوا الجنة بالزكاة والصدقات والكرم والجود، فلن يضرهم أن يعطونا شيئاً مما أنعم الله عليهم به، فتوجه مع أقرانه من أهل النار بهذه الأمانية إلى أهل الجنة : {أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقْنَا اللَّهُ} الأعراف: 05،

وبينما هو ينتظر أن يتعطف عليهم أهل الجنة بشيء العسير، إنه فقط يوم واحد يخفف عنه من هذا العذاب حيث قال أهل الجنة : {إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} الأعراف: 05 فازداد حسرة على حسرته وألمه على ألمه .

ثم توالت الأماني، فقد توجه يأخذها إلى خزنة جهنم القائمين على عذابه، عليه يستعطفهم فيرقون له، وليس هذه الأمانة بالشيء العسير، إنه فقط يوم واحد يخفف عنه من هذا العذاب الذي لا ينقطع لحظة واحدة، ولما كان يعلم أنهم ملائكة مقربون لا يفعلون شيئاً إلا بأمر الله، كانت أمنيته موزونة إذ توجه بالنداء إلى خزنة جهنم، ليس وحده إنما اشترك معه أقرانه الذين

يشاركونه أمانية،

قالوا: {أَدْعُوكُمْ يُخَفِّفُ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ} غافر: 94، فأنا الجواب كالعادة، لكنه حمل لوناً قاتماً من التقرير والتبييت، {قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوكُمْ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} غافر: 05، فلم تقابل أمنيته إلا بمزيد من دواعي الحسرة والألم.

ولأنه لا يملك سوى الأمانة، فلم يكف عنها، في كل مرة كان يقول: عسى.

فقال في نفسه إلى من أتوجه بالنداء؟ فعلم أن لخزنة النار رئيساً يدعى "مالك"، فقال في نفسه ربما يكون هذا الرئيس أرفق بي من أتباعه، فلم لا أطلب منه؟ ماذا أطلب؟ سوف أطلب منه أن يسأل الله لي الموت حتى أرتاح من هذا العذاب، لا يهم أن أدخل الجنة، ما يعنيني أن أموت وأتخلص من هذا العذاب المستمر، فتوجه مع أقرانه إلى "مالك": "يَا مَالِكَ لِيَقْضِي عَلَيْنَا رِبَّكَ الزخرف: 77، فمكث "مالك" ألف سنة حتى أجابهم، فبم أجاب "مالك" بعد هذا الزمان الطويل؟!

لقد أجاب صاحبنا وأقرانه : {إِنَّكُمْ مَا كُثُرْنَ} الزخرف: 77، فلما سمع الرجل هذا الجواب شعر بأن هذه الكلمات لا تقل إيلاماً عن عذاب بدنـه، فعظمـت في قلبه الحسرة.

وبينما هو يتقلب في النار، إذ جاءته فكرة عظيمة، لماذا يتوجه بأمانـية إلى الملائكة، وهـل بينه وبين الله حاجـب عن الدعـاء، لقد كان أهـل الصـلاح في الدـنيـا يتعلـقون ويـتشـبون بـالـدـعـاء فـيـستـجـيب اللـهـ لـهـ لـهـ، فـلمـ لاـ أـدعـوهـ وـهـ أـرحـمـ الرـاحـمـينـ، وـهـ اـجـتـمـعـ معـ أـهـلـ النـارـ يـقـرـونـ للـهـ تـعـالـىـ بـجـرـمـهـ وـمـاـ اـقـرـفـوـهـ فـيـ الدـنـيـاـ عـلـهـ يـرـضـىـ،

قالوا: {رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شَفَوْتَنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ} (106) رـبـنـاـ أـخـرـجـنـاـ مـنـهـ فـإـنـ عـدـنـاـ فـإـنـاـ ظـالـمـونـ} (107) المؤمنـونـ، فـانتـظـرواـ الجـوابـ وـمـاـ منـ جـوابـ، وـصـاحـبـناـ فـيـ كـلـ يـوـمـ يـقـولـ عـلـ الإـجـابةـ مـنـ اللـهـ تـكـوـنـ قـرـيبـاـ، وـظـلـ عـلـىـ هـذـهـ الـحـالـ حتـىـ مضـىـ قـدـرـ عمرـ الدـنـيـاـ مـرـتـينـ، فـأـتـىـ الـيـومـ الـذـيـ أـجـابـهـ فـيـهـ رـيـهـ: {اـخـسـئـوـ فـيـهـ وـكـلـاـ تـكـلـمـونـ} المؤمنـونـ: 801، حينـذـ بلـغـ مـنـهـ الـهـمـ مـبـلـغـهـ، وـأـيـقـنـ فـيـ نـفـسـهـ أـنـ لـاـ أـمـلـ فـيـ النـجـاةـ، فـلمـ يـتـفـوهـ بـعـدـ هـذـهـ الإـجـابةـ بـكـلـمـةـ وـاحـدةـ، وـانـقـطـعـتـ بـهـ الـأـمـانـيـ، وـانتـهـتـ الرـحـلـةـ: "رـحـلـةـ الـأـمـانـيـ".

ونـسـأـلـ اللـهـ لـنـاـ وـلـكـمـ حـسـنـ الـخـاتـمـهـ وـالـفـوزـ بـالـجـنـانـ فـيـ ظـلـ عـرـشـ الرـحـمـنـ وـمـعـ الـحـبـبـ الـعـدـنـانـ

كاتب المقالة : منقول

تاريخ النشر : 28/10/2010

من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفدر

رابط الموقع : www.mohammdfarag.com